

المودد

مجلة رأيية فصلية

تصدرها وزارة الثقافة والأعلام - دار الجاسق - الجمهورية العراقية

المجلد التاسع - العدد الأول - ١٤٠٠ - ١٩٨٠

1

WWW.ATTAWHEEL.COM

أسرة الجاسق

بَيْنَ مَنْطِقِ أَرِسْطُو وَالنَّحْوِ الْعَرَبِيِّ

في تقسيم الكلام

بقلم الدكتور

مُحَمَّدُ خَيْرُ الْحَلُولِ

كلية الآداب - اللاذقية

ما ذهبوا اليه والوقائع التاريخية التي وقفت عليها .

وقبل ان ادخل في التفاصيل احب ان اذكر ان القائلين باقتباس النحو العربي من امم اخرى ليس لهم في المسألة رأي واحد ، بل انهم ليذهبون في ظنونهم مذاهب شتى ، ويستدلون بأدلة هي الى الظن اقرب منها الى بحث علمي يستند الى أدلة وبراهين صحيحة ، ففريق منهم يزعم ان التأثير اللغوي كان بمنطق اليونان ، وفريق آخر يزعم انه كان بنحوهم ، لا بمنطقهم ، ويرى فريق ثالث ان التأثير لم يكن باليونان ، لان طبيعة اللغة العربية تختلف عن طبيعة لغتهم ، ويجزم بان التأثير كان بلغة السريان ، لانها لغة سامية قريبة من اللغة العربية في خصائصها ، ونظمها ، وباتي فريق آخر ليجزم بان التأثير كان بالدراسات اللغوية للهنود ، ولا يمكن ان تكون بالدراسات الاغريقية او السريانية .

وليس هذا فحسب بل ان الفريق الذي يزعم ان التأثير كان باليونان لم يتفق اصحابه على تحديد المصدر نفسه ، اذ رأى بعضهم انه ارسطو ، ورأى آخرون انه افلاطون ، وذهب فريق ثالث الى انه فلسفة الرواقيين ، وقدم كل منهم أدلة لا يصح منها إلا أدلة الرفض .

ولا شك ان في هذا الاضطراب دليلا على غموض الرؤية عند هؤلاء الباحثين ، بل اكاد اجزم بان كثيرا منهم اطلقوا احكامهم من دون ان يرجعوا

في اذهان كثير من الباحثين في النحو العربي اليوم ان المنطق الصوري امد علماء النحو العرب بكثير من اساليب البحث ، ووضع بين ايديهم تجربة غنية في الدرس اللغوي ، افادوا منها افادة مباشرة في جانب ، وغير مباشرة في جانب آخر ، وقد اطمأنوا في كثير من الجزم الى ان ما انتهجه نحاة العربية من استخدام القياس والعلة ، وما استلزموه في تقسيم الكلام الى اسم وفعل وحرف ، اما يرجع في اسله الى المنطق الصوري ، او الى الثقافة اليونانية عامة .

وقد بدأت هذه النزعة في دراسة المستشرق الالماني « مركس Merx » في نهايات القرن التاسع عشر ، ذلك انه ذكر في كتابه « تاريخ صناعة النحو السرياني » ان النحو العربي اقتبس من المنطق اليوناني مجموعة من المصطلحات ، وزعم ان مفهوم سيبويه للحرف يشبه ما جاء في كلام ارسطو عن الرباط Syndesmos .

ثم توالى بعده المستشرقون ، فكانوا بين مؤيد له ، وزار عليه ، وانتقلت هذه الدراسات من اوربا الى الوطن العربي ، ووقف المؤرخون من مسألة التأثير مواقف متغايرة بين متعصب للاقتباس ، ومنكر له ، ومعتدل يرى في ذلك رأيا وسطا .

وما بي حاجة الى ذكر المعتدلين والناكرين ، لاني لا اتوجه اليهم بهذا البحث ولا اناقش آراءهم ، بل سأعرض آراء القائلين بالاقتباس ، واوازن بين

الى المصادر الصحيحة التي تصل بهم الى الحقيقة .

ولقد آثرت في هذا البحث ان اجزىء الدراسة ، ففي التجزيء ما يتيح للباحث ان يضع يده على تفصيلات ودقائق ، ذات اهمية بالغة ، في الدلالة على اثبات الشيء او نفيه ، وآثرت ايضا ان يكون منطلق الدراسة قضية تقسيم الكلام في النحو العربي وفي المنطق الارسطي خاصة

وسأعرض عليك آراء اربعة من هؤلاء الباحثين ، ذهبوا الى ان العرب اقتبسوا تقسيم الكلام الى اسم وفعل وحرف من كتب ارسطو مباشرة او بالوساطة ، هم المستشرق « مركس » والدكتور جواد علي ، والاب اسحاق ساكا ، والدكتور ابراهيم مذكور .

اما الاول فقد زعم ان مفهوم الحرف عند سيبويه مقتبس من مفهوم الرباط Syndesmos عند ارسطو ، فكما ان ارسطو يرى « الرباط » ليس بذئ دلالة ، كذلك يرى سيبويه ان الحرف لا يدل على معنى (١) .

وقال الدكتور جواد علي : « وانا لا استبعد احتمال وقوف علي بن ابي طالب وابي الاسود الدؤلي على تقسيم الكلام الى اسم وفعل وحرف ، وقفا عليه باتصالهم بالحيرة ، او بعلماء من اهل العراق كانوا على علم بالنحو وعلوم اللغة في ذلك العهد ، وقد كان ذلك في الاسس والمبادئ » (٢) .

واما الاب اسحاق ساكا فقد ذكر ان « نظام تقسيم الكلام الى اسم وفعل وحرف في اللغة العربية هو نفس التقسيم الكلامي في اللغة اليونانية ، وهذا التقسيم هو يوناني قائم على المنطق » (٣) .

واما الدكتور ابراهيم فقد تناول الموضوع بمزيد من التفصيل ، واورد عليه من الادلة ما لم اجد له نظيرا عند باحث عربي آخر ، قال : « ونود ان تلقى نظرة على بعض هذه القواعد لتبين ما يمكن ان يلاحظ من شبه بينها وبين اول ما عرف من قواعد النحو العربي ، ورائدنا في هذا (الارجانون)

(١) انظر بحث الدكتور عبدالرحمن الحاج صالح : النحو العربي ومنطق ارسطو ٧٧ ، وانظر مجلة مجمع اللغة العربية في الاردن . العدد الاول ١٩٧٨ . بحث للدكتور جواد تروبو بعنوان : نشأة النحو العربي على ضوء كتاب سيبويه .

(٢) الملحق في تاريخ العرب ٤٩/١ .

(٣) انظر : مجلة العربي الكويتية . عدد ١٠٦ ، صفحة ٥١ .

من جانب ، و (كتاب سيبويه) من جانب آخر ، ففي مقدمة كتاب (العبارة) يقسم ارسطو الكلمة الى اسم وفعل ، معرفا الاول بانه ما دل على معنى وليس الزمن جزءا منه ، ومعرفا الثاني بانه ما دل على معنى وعلى زمن ، ثم يشير في كتاب منطقي آخر - هو الطوبيقا او الجدل - الى قسم ثالث من اقسام الكلمة يسميه الاداة . وهنا ننتقل الى كتاب سيبويه فنجد انه يبدأ بتقسيم الكلم الى اسم وفعل وحرف ، ويعرفها الواحد تلو الآخر تعريفا يحاكي من بعض النواحي التعريف الارسطي ، ومن الغريب ان ما يسميه حرفا يسميه الكوفيون اداة ، وكانهم شاؤوا ان يحتفظوا بالمصطلحات المنطقية احتفاظا تاما (٤) .

تلك هي آراء الباحثين في اقتباس التقسيم الثلاثي للكلمة العربية ، ويتضح لنا منها ما يلي :

١ - المستشرق مركس اكتفى بالحديث عن الحرف دون غيره من اجزاء الكلام .

٢ - الدكتور جواد علي لم يجزم ، بل استخدم عبارة ظنية ، قال : (وانا لا استبعد) . ولم يجعل النائر بارسطو مباشرة .

٣ - الاب اسحاق ساكا لجأ الى التعميم ، ولم يذكر شيئا واحدا يمكن ان يسيى دليلا على ما ذهب اليه .

٤ - الدكتور مذكور فصل ما لم يفصله غيره ، ولكنه لم يذكر لنا ما قاله ارسطو عن (الاداة) في كتابه : طوبيقا او انجدل . وزعم ان مفهوم سيبويه وتعريفه لها من بعض النواحي ، وزعم ان في الامر محاكاة .

فما وجه الحقيقة في هذه الآراء ؟

اول ما يجب ان نفهمه في توضيح ذلك هو ان دراسة ارسطو لبعض ظواهر اللغة لم تكن ذات علاقة بالبحوث اللغوية الخالصة ، بل كانت جزءا من المنطق والفلسفة ، ذلك انه تحدث عن اقسام الكلام لانها ترتبط عنده بالقضية ، فكل « قضية » تتكون من اسم وفعل ورباط ، كما ترتبط الفلسفة عنده بالمنطق ، لانها وسيلة تعبيرية لا بد منها في (النصور) و (القياس) ومن اجل ذلك كانت دراسة اللغة عند ارسطو وسيلة لمعاية فلسفية ،

(٤) انظر كتابه في اللغة والادب ص ٤٤ (الجزء ٢٢٧) ١٩٧١

الاداء ، وقد ترك الحديث عنها الى كتابي الشعر والخطابة .

ومعظم هذه الاجزاء لا مقابل لها في التقسيم العربي . فالحرف عند ارسطو هو الصوت الذي لا ينقسم ، ويعني به الحرف الواحد من احرف الهجاء ، ويريد بالمقطع ما ركب من حرفين هجائيين اولهما صامت ، والثاني صائت ، ويريد بالتصريف الدلالة على المفرد او الجمع ، او على السؤال والطلب ، وما يطرا على الكلمة من تغييرات لاداء هذه المعاني . اما الكلام فهو عنده صوت مركب دال ، بسض اجزائه يدل على انفراده (٨) .

وهذه الاقسام الاربعة لا اثر لها في التقسيم العربي للكلمة . فلم يبق الا حديث ارسطو عن الاسم ، والفعل ، والرباط ، فهل لها صلة بالتقسيم العربي ؟ وهل يصح رأي الباحثين الذين ذكرنا ؟

الحق ان ارسطو كان يصدر عن طبيعة اللغة اليونانية التي يكثر فيها (التركيب) اي مياغة الاسم او الفعل من كلمتين مستقلتين في الاصل ، ولذلك جاء مفهومهما في كتبه يختلف عن المفهوم العربي في عصر سيبويه ، وفي العصور التي تلت .

أ - الاسم عند ارسطو وسيبويه :

ولنعرض مفهوم ارسطو اولا ، ثم نعرض المفهوم العربي ثانيا ، لتسهيل الموازنة بين الطرفين .

يقول في كتاب « العبارة » في الحديث عن الاسم : « هو لفظة دالة بتواطؤ ، مجردة من الزمان وليس واحد من اجزائها دالا على انفراده ، وذلك ان (قاليبس) اذا انفرد منه (ابس) لم يدل بانفراده على شيء ، كما يدل في قولك : قالوس ابس . اي فرس قاره . وليست الحال ايضا في الاسماء المركبة كالحال في الاسماء البسيطة ، وذلك ان جزءا من الاسم البسيط ليس يدل على شيء اصلا ، واما الاسم المركب فمن شأن الجزء ان يدل على شيء ، لكن ليس على انفراد .

فاما قولنا (بتواطؤ) فمن قبل انه ليس من الاسماء اسم بالطبع الا اذا صار دليلا ، فبان الاصوات ايضا التي لا تكتب نجدها تدل على شيء ، مثل اصوات البهائم ، الا انه ليس شيء منها اسما .

واما قولنا : لا انسان . فليس باسم ، ولا وضع له ايضا اسم ينبغي ان يسمى به ، وذلك انه

(٨) الشعر : ١٠٨ - ١١٦ .

هي دراسة الفكر الانساني . لان في دراستها تحديدا لمفومات المنطقية ، ومثل هذه الدراسة تختلف عن دراسة علماء اللغة ، التي تقوم على ملاحظة العبارة في ظواهرها الشكلية والمعنوية ، انهم يدرسون اللغة للغة ، اما هو فيدرس اللغة للفكر .

ومن اجل ذلك نراه يدرس اللغة من حيث الدلالة لا من حيث الشكل ، وهذا هو منهجه في كتبه الاربعة : المقولات ، والعبارة ، والشعر ، والخطابة .

وقد استعمل في هذه الدراسة مصطلحات فلسفية مجردة ، فالكلمات عنده تدل على جوهر ، او كم ، او كيف ، او اضافة ، او موضوع ، او يفعل ، او يفعل ، او . . .

وقد قسم الكلمات - كما ترى - بحسب مدلولها الذاتي ، ثم مضى يتحدث عنها ويربط بين طريقة استخدامها ومدلولها ، اي بين موقعها الوظيفي في التركيب ، ومدلولها المعجمي ، فما دل على جوهر مثلا ، له في الكلام المركب وقع خاص ، يقول : « فاما الجوهر الموصوف بانه اول بالتحقيق والتقديم والتفضيل فهو الذي لا يقال على موضوع ما ، ولا هو في موضوع ما ، ومثال ذلك : انسان ما ، وفرس ما » (٥) .

اما تقسيم ارسطو للكلام فلم يأت في كتابيه : العبارة والطوبىقا فحسب ، بل جاء ايضا في كتابيه الآخرين : الشعر والخطابة ، وقد اعتمد في تقسيمه هذا على خصائص اللغة اليونانية ، وانها تختلف عن اللغة العربية اختلافا غير يسير ، ومن هنا جاء مفهوم الاسم والفعل والرباط في كتبه يختلف عما يقابله في النحو العربي .

وما جاء في كتاب (الشعر) عن هذه الاقسام يعد اوفى مما جاء عنها في الكتب الاخرى مجتمعة . فقد قسم الكلام الى سبعة اقسام لا ثلاثة - كما زعم القائلون بالافتباس - يقول : « هذه هي اجزاء الكلام الداخلة في العبارة بوجه عام : الحرف ، والمقطع ، والرباط ، والاسم والفعل ، والتصريف ، والكلام » (٦) ، اما في كتابه العبارة فلم يذكر غير الاسم والفعل والمقطع والكلام (٧) ، وقد تجاوز الاداة فلم يذكرها لانه - كما يرى الفارابي - يحتاج في هذا الكتاب الى الحديث عن الاسم والفعل دون

(٥) انظر : كتاب المقولات : ترجمة اسحاق بن حنين ص : ٦٠ .

(٦) ترجمة الدكتور شكرى مياد . ص : ١٠٨ ، (القاهرة ١٣٨٦ - ١٩٦٧) .

(٧) ترجمة الفارابي : ص : ٢٩ - ٢٩ (بيروت : ١٩٦٠) .

ليس بقول ، و (لا) سالبة ، فليكن اسما غير محصل « (٩) » .

واضاف في كتاب الشعر شيئا يحسن ذكره ، قال : « وانواع الاسم هي : الاسم البسيط ، واعني بالبيسط ما لم يكن مركبا من اجزاء دالة ، مثل : ارض ، والاسم المضاعف ، ومنه ما يتركب من جزء دال وجزء غير دال ، كما ان منه ما يتركب من جزئين دائنين ، وقد يكون الاسم ثلاثي الاجزاء او رباعي الاجزاء او كثير الاجزاء » (١٠) .

والواضح من حديثه عن الاسم انه يعنى بشيئين :

اولهما الدلالة .

وثانيهما النوع .

فللاسم دلالة ما ، ولكنه يقرنها الى فكسرة فلسفية هي فكرة التواطؤ ، او التوافق ، ويفسرها بان الاسم ليس اسما بطبعه ، بل بتعارف الناس وتواطئهم ، كما نراه يلج - الى جانب هذا - على ان جزء الاسم لا يدل على شيء .

وفي حديثه عن النوع نراه يقسمه الى مركب وغير مركب ، ومحصل وغير محصل ، والاسم المركب لا وجود له في التقسيم العربي . اما غير المحصل مثل : لا انسان . فلا وجود له في اللغة العربية اصلا ، وقد ذكر هذا قديما ابن سينا ، ووضح ان الاسماء غير المحصلة موجودة في الفارسية واليونانية . وليس لها وجود في اللغة العربية (١١) .

ذاك هو مفهوم ارسطو للاسم ، فهل يشبه حقا ما جاء في كتاب سيبويه كما زعم الدكتور المذكور ؟

ان سيبويه لم يقل شيئا عن الاسم ، فهو لم يعرفه ، ولم يصفه ، ولم يتحدث عن انواعه ، وكل ما قاله لا يزيد على اربع كلمات ، هي : « فالاسم : رجل وفرس وحائط » (١٢) .

أليس غريبا ان يقول الدكتور المذكور : ان سيبويه عرف اجزاء الكلام الواحد تلو الاخر تعريفا يشبه من بعض جوانبه تعريف ارسطو لها في كتاب العبارة ؟

(٩) شرح كتاب العبارة . للفارابي ص : ٢٩ - ٢٢ وانظر

ترجمة اسعالي بن حنين : ص ٦٠ .

(١٠) كتاب الشعر : ١١٤ .

(١١) انظر : منهج التفكير عند مفكرى الاسلام : ٢٤ .

(١٢) كتاب سيبويه (هارون) : ١٢/١ .

واذا تجاوزنا المرحلة الزمنية التي حددتها هؤلاء الباحثون ، وهي مرحلة نشأة النحو حتى عصر كتاب سيبويه ، رأينا قلة من النحاة المتأخرين في القرن الثالث للهجرة يقفون على منطق ارسطو ، ويحددون الاسم حدا يصدر عن فهمهم عن مفاهيم فلسفية ، وقد نال منهم ومن حدهم ابو الفاسم الزجاجي ، فقال في كتابه (الايضاح) (١٣) : « الاسم في كلام العرب ما كان فاعلا او مفعولا او واقعا في حين الفاعل والمفعول به . هذا الحد داخل في مقابيس النحو واوضاعه . وليس يخرج عنه البتة ، ولا يدخل فيه ما ليس باسم ، وانما قلنا في كلام العرب لانا له نقصد . وعليه نتكلم ، ولان المنطقيين وبعض النحويين قد حددوه حدا خارجا عن اوضاع النحو ، ففانوا : الاسم صوت موضوع دال باتفاق على معنى غير مفروق بزمان . وليس هذا من الفاظ النحويين ولا اوضاعهم ، وانما هو من كلام المنطقيين ومذهبهم ، لان غرضهم غير غرضنا ، ومغزاهم غير مغزانا ، وهو عندنا على اوضاع النحو غير صحيح ، لانه يلزم منه ان يكون كثير من الحروف اسماء ، لان من الحروف ما يدل على معنى دلالة غير مقرونة بزمان ، نحو : ان ، ولكن . وما شبه ذلك » .

وقال في الموضع نفسه : « وقال آخرون : الاسم صوت موضوع دال باتفاق على معنى بلا زمان ولا يدل جزؤه على شيء من معناه . وهذا ايضا من كلام القوم ، وان كانت فيه هذه الزيادة اليسيرة . وقد مضى القول فيه » .

ففي هذا النص ما يجزم بان جزءا يسيرا من مفهوم الاسم الارسطي قد وصل الى البيئة النحوية عن طريق المناطقة في القرن الثالث للهجرة ، وقد اختلفت منه مواقف النحويين ، فبعضهم - وهم الجمهور - لم يسمعوا به او يطلعوا عليه ، وقد اغفلته كتبهم فلم تات منه على ذكر ، وبعضهم - وهم قلة - وقفوا عليه ولكنهم انكروه ، وعدوه خروجا على اعراف النحو واوضاعه ، كما رأينا في كلام الزجاجي . وفريق ثالث اخذوا بهذا الجزء اليسير من مفهوم ارسطو للاسم ، وساقوه حدا له ، ولا شك ان هؤلاء كانوا اقل شهرة من غيرهم ، لانا لم نجد في كتاب نحوي يعتد به هذا المفهوم ، ولولا ان الزجاجي نقله في كتاب لما سمع به احد ، لهوانه وهوان شهرته .

وليس هذا فحسب ، بل هناك ما هو اكثر

(١٣) كتاب : الايضاح في علل النحو : ٨ و ٢٩ .

دلالة ، ذلك ان اقتباس بعض النحاة من مفهوم الاسم الارسطي في القرون المتأخرة لا يعني ان العرب اقتبسوا فكرة التقسيم في القرن الاول ، فمنذ ايام الحضرمي وابي عمرو بن العلاء كان هناك تمييز واضح للاسم من الحرف ، فقد ذكر سيبويه في كتابه (١٤) ان (كم) عند ابي عمرو اسم لا حرف ، لانها يسند اليها ، وذلك يعني ان هناك معيارا وظيفيا عند ابي عمرو يفرق به بين الاسم والحرف ، وتلك وثيقة مادية تكشف عن حقيقة ما الى ردها سبيل . هي ان التمييز بين الاسم والفعل يرجع الى بداية القرن الثاني للهجرة ، اي قبل كتاب سيبويه بنصف قرن او يزيد .

ب - مفهوم الفعل عند ارسطو وسيبويه :

ذاك هو اختلاف مفهوم الاسم بين سيبويه وارسطو . فابن يتج مفهوم الفعل الارسطي من المفهوم العربي لا

تحدث ارسطو عن الفعل : او الكلمة - كما يسميه - في كتابيه الشعر والعبارة حديثا طويلا ، فذكر ان الفعل عنده ما دل على الزمان الحاضر ، فاذا دل على الماضي او المستقبل لم يكن عنده فعلا على الاطلاق ، قال في كتاب (العبارة) : « وعلى هذا المثال (صَحَّ) الذي يدل على الزمان الماضي ، او (يَصِحُّ) الذي يدل على الزمان المستأنف ليس بكلمة ، لكن تصريف من تصاريف الكلمة ، والفرق بين هذين وبين الكلمة ان الكلمة تدل على الزمان الحاضر ، وهذين وما اشبههما يدل على الزمان الذي حوله » (١٥) . وقد ذكر الفارابي في شرحه ان ارسطو يسمي « الكلمة على الاطلاق ما دلت على الزمن الحاضر ، وما دل على الزمان الماضي والمستقبل فليس يسميه كلمة على الاطلاق ، بل كلمة منضرة » (١٦) .

ويرى ايضا ان الفعل من حيث الدلالة ليس بجوهر ، بل هو عرض « يقال على الموضوع ، او يقال في الموضوع » . ويرتبط هذا المفهوم بطبيعة اللغة اليونانية ، ذلك انه يقصد بقوله (ما يقال في الموضوع) ان الاسم - كما يرى الفارابي - اذا اخبر عنه بالاعراض الزائلة بوساطة الاسم المشتق كان لابد من استعمال فعل الكون ليكون رابطا بين الموضوع والعرض ، وقد مثل الفارابي لهذا بقوله :

« الانسان يوجد عادلا » . فالفعل (يوجد) يرتبط في اللغة اليونانية بين الانسان وكونه عادلا ، واليك كلام الفارابي نفسه : « فقله : ما يقال في الموضوع يعني به الاعراض من حيث هي اعراض في الشيء الموضوع لها ، فان هذه اذا دل عليها باسماء مشتقة ارتبطت بموضوعاتها بالكلم الوجودية : كقولنا : الانسان يوجد عادلا » .

اما اذا كان الفعل نفسه هو المحمول ، اي الخبر ، فحينئذ لا يحتاج في اللغة اليونانية الى كلمة وجودية : اي فعل كون ، لان في الفعل معنى الوجود . وهذا تفسير قول الفارابي : « واذا دل عليها بالكلم ارتبطت بانفسها ، لاجل ما فيها من قوة التكلم الوجودية كقولنا : الانسان يعدل » .

ويتضح ارتباط مفهوم ارسطو باللغة اليونانية وبالفلسفة بقول الفارابي ايضا : « وقوله : ما يقال على الموضوع ، يعني به الجواهر الكلية ، وكنيات الاعراض ، اذا حملت على انواعها ان كانت اجناسا وعلى اشخاصها ان كانت انواعا . فان هذه انما ترتبط بموضوعاتها بالكلم الوجودية . لا بان تجعل من اسمائها كلم : فانا لا نقول : ان البياض يتكون او قد تكون ، بل نقول : ان البياض يوجد لونا ... » (١٧) .

وثمة امر آخر هو ان ارسطو يقسم الفعل الى قسمين : كلمة محصلة ، واخرى غير محصلة ، يقول : « واما قولنا : لا صحح . او قولنا : لا مرض ، فليست اسميه كلمة ، فانه وان كان يدل مع ما يدل عليه على زمان ، وكان ايضا يقال على شيء ، الا انه ليس لهذا الصنف اسم موضوع : فليسم كلمة غير محصلة » . ويرى الفارابي في شرحه ان « هذا الصنف من الكلمة غير موجود اصلا في اللسان العربي » (١٨) .

وفي كتاب الشفاء لابن سينا نجد شيئا آخر من مفهوم الفعل الارسطي ، يقول : « ليس من المحتم ان يكون كل فعل عند النحاة كلمة عند المناطق ، لان المضارع غير الغائب : اي المتكلم والمخاطب فعل عند النحاة ، ولا يعتبر كلمة عند المناطق ، لان المضارع غير الغائب مركب ، والمركب غير كلمة » (١٩) .

(١٧) انظر : شرح كتاب العبارة : ٢٦ .

(١٨) انظر : شرح كتاب العبارة : ٢٣ - ٢٤ .

(١٩) الشفاء : لوحة ٢٧ ، نسخة مصورة في جامعة القاهرة . من : مناهج المفكرين : ٢٤ .

(١٤) انظر كتاب سيبويه (هابون) ١٦١/٢ .

(١٥) انظر كتاب الشعر : ١١٢ ، وكتاب العبارة : ٢٢ - ٢٣ .

(١٦) كتاب العبارة . بشرح الفارابي : ٢٦ .

في هذا العرنس الموجز نجد في مفهوم أرسطو للفعل ما يلي :

١ - أن الفعل الذي يدل على الزمن الحاضر هو الفعل المطلق . أما الذي يدل على الماضي ، أو على المستقبل ، فليس كذلك ، بل فعل مصرف ، وهذا يرتبط بطبيعة اللغة اليونانية التي ينشأ فيها الفعل الحاضر مادة الفعل ، كما في اللغة الانكليزية ، على حين نجد الفعل الماضي العربي هو مادة الفعل .

٢ - وكذلك لا يكون فعلا إلا إذا كان بصيغة الغائب ، أما ما كان للمتكلم أو للمخاطب فلا يكون فعلا ، بل هو عنده كلام مركب .

٣ - أن الفعل يقال على شيء ، أي أنه في التعبير العربي سند ، غير أن أرسطو يزيد في هذا ، لأن طبيعة اللغة اليونانية تحمله على ذلك ، لأنها تستخدم نوعين من الأفعال : نوعا يرتبط بين الموضوع والمحمول ، هو في المفهوم الحديث فعل مساعد ، ونوعا آخر غير مساعد ينضم معنى فعل التكون إلى جانب معناه الخاص .

وواضح من هذا كله أن مفهوم الفعل عند أرسطو يصدر عن طبيعة اللغة اليونانية وعن معطيات المنطق والفلسفة ، فلنعرض بجانبه مفهوم سيبويه لنرى أين يقع زعم الدكتور المذكور في أن هناك جوانب من التشابه إلى درجة المحاكاة بين المفهومين .

من لفظ أحداث الاسماء ، وبنيت لما مضى ، ولما يقول سيبويه : « وأما الفعل فأمثلة أخذت من لفظ أحداث الاسماء ، وبنيت لما مضى ، ولما يكون ولم يقع ، وما هو كائن لم ينقطع ، فاما بناء ما مضى : فذهب ، وسمع ومكت وحمد ، وأما بناء ما لم يقع فانه قولك أمرا : اذهب ، واقتل ، واضرب ، ومخبرا : يقتل ، ويذهب ، ويضرب ، ويقتل ويضرب ، وكذلك بناء ما لم ينقطع وهو كائن إذا أخبرت ، فهذه الأمثلة التي أخذت من لفظ أحداث الاسماء ، ولها أبنية كثيرة ستبين أن شاء الله » (٢٠) .

ويبدو من هذا النص أن مفهوم سيبويه للفعل

يقوم على ثلاثة أشياء :

١ - الصيغة .

٢ - الاشتقاق .

٣ - الدلالة .

ونجد ذكرناها منفصلة للتوضيح ، وهي في الواقع متواشجة يصعب الفصل بينها ، ذلك أن تشكل الأفعال المشددة في مسيغ خاصة هو الذي يحدد دلالتها ، فالصيغة (فعل) تدل على الماضي ، وأحيثان (يفعل وافعل) تدلان على الحاضر والمستقبل ، وهذا المفهوم - كما هو واضح - مبني على طبيعة اللغة العربية ، واستقراء نصوصها والتمرس بها ، وليس فيه ما يدنيه من مفهوم أرسطو من قريب أو بعيد .

وظل مفهوم الفعل على هذه الصورة في القرون التي تعاقبت بعد سيبويه ، لم يضاف إليها شيء ذو بال ، فبعض النحويين ذكر أن الفعل يدل على حدث مقترن بزمان محصل ، فأضاف كلمة (محصل) ليعبر عن الفعل من المصدر ، ويريد بها أن صيغة الفعل هي التي تدل على الزمان ، وذكر آخر أنه ما استند إلى غيره ولم يستند غيره إليه (٢١) .

ج - مفهوم الحرف بين أرسطو وسيبويه :

ولنتقل إلى ما زعمه مركس والدكتور المذكور من أن مفهوم سيبويه للحرف متأثر بكلام أرسطو للرباط أو الأداة . فماذا قال كل منهما ؟

جاء في كتاب الشعر : (٢٢) « والرباط لفظ غير دال ، ولا يمنع ولا يسبب الصوت الواحد المركب من أصوات كثيرة ، ويوضع في الطرفين أو في الوسط ، أو صوت غير دال يمكن أن يركب من أصوات كثيرة كل منها دال صوتا واحدا دالا ، أو صوت غير دال ينسب إلى ابتداء جملة أو انتهائها أو تفصيلها ، ولا يصح أن يستقل بنفسه في أول الجملة » .

ففي هذا النص ثلاثة أنواع من الحروف ، تسعمل في اللغة اليونانية ، وهي جميعها تشترك في سمة واحدة ، هي أنها ليست بذات معنى ، وقد بدأ أرسطو حديثه عن كل منها بقوله : « صوت غير دال » .

أما سيبويه فقد وصف الحرف بأنه « ما جاء لمعنى » ، قال : « وحرف جاء لمعنى ليس باسم ولا فعل » . ، وقال بعد هذا : « وأما ما جاء لمعنى وليس باسم ولا فعل فنحو : ثم ، وسوف ، وواو القسم ، ولام الإضافة ، ونحوها » (٢٣) وفي مواضع

(٢١) انظر : الإيضاح في علل النحو ٥٢ ، والصاحبي ٥٢ .
وأسرار العربية ١١ .

(٢٢) ترجمة الدكتور شكري عياد . ص : ١٢ .

(٢٣) الكتاب (هارون) ١٢/١ .

(٢٠) الكتاب (هارون) ١٢/١ .

كثيرة من كتابه يسمي الحرف بمعناه ، كان يقول :
حرف النداء ، أو حرف النفي ، أو حرف الاستفهام ،
أو ...

وتد زعم المستشرق مركس - على الرغم من
هذا - ان سيبويه ينفي ان يكون للحرف معنى في
كلام العرب ، ولعله فهم من كلام النحاة عامسة
وسيبيويه خاصة غير ما ارادوه ، فهم يذهبون الى ان
معنى الحرف لا يظهر الا في التركيب ، أي ان معناه
- بحسب مصطلح علم اللغة الحديث - وظيفي لا
معجمي ، وهذا يعني انه ذو دلالة عند سيبويه ،
وليس مجرد رباط .

واما ما زعمه الدكتور مذكور من ان الكوفيين
استعملوا المصطلح (اداة) اليوناني لانهم « شأوا »
ان يحتفظوا بالمصطلحات المنطقية احتفاظا تاما « فلا
يمكن ان يعد من قبيل البحث عن الحقيقة ، بل هم
ضرب من ضروب الظن والتعجل في الحكم ، لان
تحقيق مثل هذا الزعم لا يكون الا بالعودة الى
الترجمة التي سبقت القرن الثاني للهجرة الذي
اغل الغراء ، لانه استعمل لفظ اداة غير مرة في
كتابه (معاني القرآن) ، وهذا من الصعوبة بمكان
: لان اول من نقل شيئا من المنطق الى اللغة العربية
هو محمد بن عبدالله بن المقفع - على اصح الاقوال -
اي كان النقل الاول معاصرا للغراء ، والغراء رجل
لفوى ذو حظ غير وافر من الاعتزال ، فهل يمكن
ان يكون ممن اطلعوا على الترجمة العربية منذ
بداياتها لا هنا صدقنا ذلك ، وصدقنا ان الترجمة
كانت بحيث يفهمها رجل كالغراء . ولكن من
يستطيع ان يعرف الكلمة العربية التي استخدمها
المترجم ، ارباط هي ام اداة ؟ لان المتأخرين ثم
يتفقوا على كلمة واحدة ، فقد ترجمها متى بن يونس
بـ « رباط » (٢٤) ، وترجمها الفارابي بـ « اداة » (٢٥)
البس من المحتمل ان تكون الكلمة الاولى اسبق
بدليل ترجمة متى بن يونس ، ثم نقلها الفارابي فيما
بعد الى (اداة) مستفيدا من مصطلحات النحاة
العرب ؟ واذا كان الامر بمثل هذا التعقيد ، والبعد
عن التحقيق افلا يكون اطلاق الحكم على هذه
الصورة الجازمة مما يشوه الحقائق العلمية .

د - دليل مادي :

ومن حسن الحظ انه وصل الينا شيء من
تراث اليونان النحوي في آثار الفلاسفة المسلمين ،

كثير منه نجده في كتاب الفارابي (الالفاظ المستعملة
في المنطق) ونجد بعضه في كتابي ابن سينا : الشفاء ،
والنجاة ، وحين نعود اليها نجد الاختلاف بين
النحو العربي والنحو اليوناني ذا شقين :

الاول : اختلاف في طريقة الاستخدام بين
اللغتين : العربية واليونانية .

والثاني : اختلاف في منهج المدرس
والتصنيف .

فالحرف مثلا في اللغة اليونانية ليس دائما
لفظا واحدا يتميز من الاسم والفعل في بنيته الشكلية .
كما هي الحال في العربية ، والفعل - كما رأينا من
قبل - نوعان : فعل كون مساعد يربط بين الموضوع
والمحمول ، وغير مساعد يخبر به عن الجوهر
مباشرة .

اما في المنهج فقد سلك اليونان في تصنيف
الكلمات منهجا وظيفيا ، اما العرب فقد سلكوا
منهجا تتأزر فيه الشكلية والوظيفية والدلالية .
ومن هنا صار ما يعده اليونان حرفا مصنفا عند
العرب في الاسماء ، وهذا واضح جدا في قول
الفارابي : « ان الالفاظ الدالة منها ما هو اسم ،
ومنها ما هو كلمة ، والكلمة هي التي يسميها اهل
العلم باللسان العربي الافعال ، ومنها ما هو مركب
من الاسماء والافعال » . وقال ايضا : « غير ان
العادة لم تجر من اصحاب علم النحو العربي الى
زماننا هذا بان يفرد لكل صنف منها اسم يخصه ،
فينبغي ان نستعمل في تعددها اصناف الاسامي
التي تأدت البنا من اهل العلم بالنحو من اهل اللسان
اليوناني ، فانهم افردوا كل صنف منها باسم
خاص » .

ثم ذكر من اصناف الحروف ما هي اسماء
في النحو العربي :

- ١ - كالضمائر التي سماها الخوالف .
- ٢ - والاسماء الموصولة التي سماها
الواصلات .
- ٣ - والحواشي ، وعد فيها : ليس ، وليت
شعري ، وشبيه ان يكون .
- ٤ - وذكر في جملة الحروف الاسمين
العربيين : كل ، وبعض (٢٦) .

* * *

(٢٦) انظر : الالفاظ المستعملة في المنطق : ٤١ - ٤٦ .

(٢٤) انظر : كتاب الشعر : ١٢ .

(٢٥) انظر : شرح كتاب العبارة : ٤٨ .

واذن ، فان النظرة اليونانية الى اجزاء الكلام تختلف عن النظرة العربية ، اما التقاء اللغتين في احتواء العناصر الثلاثة فلا دليل فيه ، لان اللغات جميعا تحتويها ، ولا بد منها في تكامل الاداء .

وعلة ذلك ترجع الى ان نشأة اللغة الانسانية ونموها مرتبطان بوعي الانسان للاشياء من حوله ، وهذا الوعي بحث على التسمية ، ثم ان استعمال هذه الاشياء يشكل حدثا يعيه الانسان ويعبر عنه بكلمة سميت فيما بعد بالفعل ، وبهذا ظهر الاسم والفعل قبل ان يظهر الحرف ، لانهما يرتبطان بالمحيط المادي واحداثه ، اما الحرف فلا يسمي المادة ، ولا يعبر عن احداثها ، بل يربط بين معنى الاسم ومعنى الفعل في التركيب ، فلا يظهر الا في مرحلة الصياغة او الاسلوب .

وعلى هذا يكون الاسم والفعل كالابجدية الاولى في حياة اللغات الانسانية ، ويكون الحرف من مستحدثات المرحلة الاسلوبية او التركيبية في حياتها ، ومن اجل ذلك تلتقي اللغات العالمية في هذه الاقسام الثلاثة ، وقد اهتمدى علماء كل منها الى تمييزها بعضها من بعض باسلوب يختلف بين لغة واخرى .

ومن هنا يكون ما ذكره الدكتور جواد علي من ان من المحتمل ان يكون علي وابو الاسود قد وفقوا على تقسيم الكلام في لغة امة غير العربية لا يدل على شيء البتة ، اذ ليس المهم ان يطلعا على مثل ذلك ، بل المهم ان يكون لهما منهج لغوي يميزان به اجزاء الكلام بعضها من بعض ، وهذا غير ميسر لهما في ذلك الزمن ، ولا تدل عليه الوقائع التاريخية وما ينسب اليهما من انهما اهتمدا الى هذا التقسيم لا يعدوان ان يكون خيرا شعبيا لا يحمل حقيقة علمية .

اضف الى ذلك ان كتب الطبقات القديمة قبل القرن الثالث للهجرة لا تشير الى شيء من هذا (٢٧) ، بل تذكر ان ابا الاسود وضع ابوابا في النحو ليس غير ، هي باب الفاعل والمفعول والمضاف

(٢٧) كتاب : طبقات ابن سلام ، ومراتب النحويين ، وطبقات الزبيدي ، وفهرست ابن النديم .

اليه والمنصوب بالحرف ، ويذكر بعضها الاخر انه وضع باب التعجب . ولو ان ابا الاسود وعليما نسما الكلام الى اسم وفعل وحرف لكان النحو قد ولد منذ وضعه منظما مبروبا ذا خلية كاملة ، ويغلب على الظن ان اول من اهتمدى الى هذا التقسيم وذكره في مجالسه هو ابن ابي اسحاق الحضرمي ، وان اول من درساها في كتاب هو تلميذه عيسى بن عمر صاحب كتابي الجامع والاكمال .

ان علم اللغة من العلوم التأملية - يحسب تصنيف ابن خلدون للعلوم - وهي العلوم التي لا تعتمد النقل والاثار كالعلوم الدينية ، ولذلك يهتدي فيها الانسان بفكره ، اتي مسائلها وموضوعاتها ، وينفذ الى بواطنها من دون اعتماد على نقل او سنة ، وتتميز هذه العلوم بابها مشتركة بين الامم ، وذلك يعني ان الاستقراء اللغوي عند العرب وعند غيرهم من الامم وصل الى بنية اللغة ، وحظنها الى اجزائها ، فتشابهت العناصر العامة ، ولكن اختلفت النظرة بين امة واخرى . فاما سماد العرب اسما قد يكون حرفا عند اليونان او غيرهم ، وبهذا لا يدل التشابه العام في التقسيم على اقتباس امة من اخرى .

وهكذا يخيل اليك وانت تستعرض آراء هؤلاء الفائلين بالتأثر انهم لم يقفوا على شيء مما في كتاب سيبويه ، ولم يعرفوا اسلوبه في استقراء النصوص العربية ، وتوحيدها ، وتنسيق الظواهر انعاما فيها ، ولم يقفوا ايضا على احاطته بالمستويات اللغوية التي تظهر جليلة في كتابه ، فهذه لغة قبيحة ، وتلك عالية ، وهذه ضرورة شعرية ، وتلك شاذة ، هذه قليلة وتلك كثيرة شائعة ، الخ ... وهي تدل دلالة جازمة على انه استقرى النصوص ، ووعى النظم ، وصدر عن معطيات اللغة العربية دون سواها ، بل ان كثيرا من هؤلاء الباحثين لم يقفوا ايضا على دراسة ارسطو للغة ، ولم يعرفوا رايه في الاسم والفعل والرباط ، ولم يتبين لهم كم قسما قسم الكلام ، فظنوا انه جعله ثلاثة اقسام ، وهو عنده - كما رايت - سبعة .

وهذا يدلك على ان هؤلاء الرهط من الباحثين لم يكن لديهم منهج علمي فيما ذهبوا اليه ، بل قامت دراستهم على الظن والاحتمال ، وقامت عند بعضهم على التبعية والارتجال .